المسلمون والجهاد المسلح

فى البدء، وخلال السنوات الثلاث عشرة التى أمضاها الرسول ﷺ، بمكة داعيًا إلى الدين الجديد، لم تكن «الدولة» الإسلامية هدفًا من أهداف الرسول، ذلك أن بناء «الدولة» ليس ركنًا من أركان الدين، ولا هو بالقضية الدينية التى جاء بها الوحى إلى رسول الله.. ولكنها نشأت بعد أن استفرغ الرسول وصحبه جهدهم السلمى، كجماعة مؤمنة، فى دعوة مشركى قريش إلى التدين بالإسلام.. فلقد تجاوز المشركون موقع «الرفض» للإسلام إلى حيث أمعنوا فى إيذاء المسلمين وتعذيبهم، فضلاً عن سلبهم حرية من آمن فى أن يدعو إلى دينه الجديد، الأمر الذى جعل الرسول ﷺ، يجدُّ فى السعى كى يخرج بالإيمان والمؤمنين من «مرحلة الاستضعاف»، وذلك بهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة حينًا، وعرض دعوته على أهل «الطائف» حينا آخر.. وأيضا بعرض الإسلام على العرب القادمين إلى مكة حاجين إلى بيتها العتيق..

فلما أن فتح الله للإسلام قلوب نفر من عرب «يثرب» من الأوس والخزرج، كانت بيعتهم له «بالعقبة» على الإسلام. وعلى أن يهاجر إلى

بلدهم، فيقيم بها «السلطة» التى تحمى حرية الدعوة الإسلامية وتنهى «دور الاستضعاف» الذى عاشه المسلمون ثلاثة عشر عامًا. وبهذه البيعة ولدت «الدولة» العربية الإسلامية الأولى.

ولقد كان طبيعيًا مع ظروف «الاستضعاف» التى عاشها المسلمون بمكة قبل الهجرة إلى «يثرب» ـ [المدينة] ـ ألا يكون القتال أمرًا واردًا فى التكليف الإلهى لنبيه وللمؤمنين، تشهد بذلك الآيات والسور المكية للقرآن الكريم، ففيها نقرأ قول الله ـ سبحانه ـ للرسول ﷺ:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

[المؤمنون: ٩٦].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٥].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

[الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

وحتى بالمدينة المنورة، ولحين من الدهر بعد هجرة الرسول ﷺ، والمؤمنين إليها، وقيام نواة «الدولة» العربية الإسلامية فيها، كانت آيات القرآن الكريم تؤكد على «الجهاد» غير القتالى فى الصراع بين المؤمنين

والمشركين، فلقد أصبح للإسلام كيان متميز، واتخذ هذا الكيان لنفسه من المدينة مجالاً حيويّا، غدَت لأهله فيه حرية الدعوة إلى الدين الجديد. . ففى هذا المناخ، ورغم انتهاء مرحلة «الاستضعاف» بالنسبة للمسلمين، نجد الله ـ سبحانه ـ يوحى إلى رسوله ﷺ قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١٠ ـ ١١].

وحتى عندما كان اليهود يمارسون مع الرسول خلقهم العريق واللصيق، وهو نقض العهود وخيانة المواثيق، كان الوحى ينزل من السماء فيقول:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

لكن الهجرة، وقد أنهت «دور الاستضعاف»، نراها مصاحبة لتطور هام فى أدوات الصراع «المأذون» بها، من الله ـ سبحانه ـ للمسلمين، ضد أعداء الدين الجديد. . فبها، وبالدولة التى أقاموها بالمدينة قد أصبح بالإمكان أن يتجاوزوا تلك المرحلة التى كانوا يواجهون فيها العنت «بالعفو» و«الصفح» و«الهجر الجميل»! ومن ثم فلقد أحل الله لهم النهوض إلى الصراع ضد أعدائهم، متخذين أدوات أشد وأدخل فى باب

العنف من هذه الأدوات . . وعندما كان الرسول ﷺ ، مهاجراً من مكة إلى المدينة ، نزل الوحى بآيات تتحدث عن دور «التدافع» فى انتصار الحق على الباطل ، وحق المظلومين ، الذين أخرجهم الظالمون من ديارهم ، فى الدخول إلى هذا الميدان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

[الحج : ٣٨ ـ ٤٠] .

وقال المفسرون لهذه الآيات ـ التى صاحب نزولها تمام حدث الهجرة ـ إنها قد أعطت المسلمين «الإذن» في القتال . . وإن كان المتأمل فى نصها والفقه لكلماتها لا يجد بها أكثر من الإذن والتوجيه إلى «الصراع» ضد الأعداء ، أيّا كانت أدوات هذا الصراع ، وأيّا كان مكانها من أدوات «القتال»! . .

وفيما بين السنة الأولى من الهجرة والسنة السابعة ، التى أعقبت صلح الحديبية والتى تمت فيها عمرة القضاء ، فى هذه السنوات السبع شهد المسلمون أكثر من عشرين غزوة ، مارسوا القتال فى عدد منها . . ومع ذلك ، فلقد ظل قتالهم هذا ، طوال هذه السنوات ، محكومًا «بالإذن» الإلهى للمظلومين فى أن يستخدموا أدوات «الصراع» فى ردع الظالمين الذين أخرجوهم من الديار! . . فلما كانت السنة السابعة من الهجرة ،

وتجهز المسلمون للسفر من المدينة قاصدين مكة لأداء عمرة القضاء، وفقًا لصلح الحديبية الذى أبرموه مع قريش فى عامهم المنصرم، توجس المسلمون خيفة من غدر المشركين بهم عند أدائهم لمناسك العمرة. . فهم سيدخلون معتمرين، وليس معهم من السلاح سوى سلاح المسافر. . ثم إن الوقت فى الأشهر الحرم التى لا يحل فيها القتال، والمكان هو الحرم الآمن الذى لا يجوز فيه قتال. . فما الضمان من غدر المشركين وأخذهم المسلمين على غرة فى هذا التوقيت وذلك المكان وتلك الملابسات؟!.

وأمام خشية المسلمين هذه من غدر المشركين ونقضهم عهد الحديبية، نزل وحى الله بآياته التى «تأمر» ـ بل إن شئت الدقة «تأذن» ـ «بالقتال»، إذا ما نقض المشركون العهد، وتطلب من المسلمين قتال أعدائهم المشركين، حتى ولو كان رد العدوان فى الشهر الحرام والبيت الحرام.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٤].

فأمام عدوان المشركين . . ونقضهم العهد . . واستحلالهم حرمة الشهر الحرام والبيت الحرام . . على المؤمنين قتال الذين أخرجوهم من ديارهم، واجتهدوا فى فتنتهم عن دينهم، دونما تحرج من «الحرمات»، ذلك أن [الحرمات قصاص]، وفى القصاص حياة لأولى الألباب! . .

بل وأكثر من ذلك . . فإننا عندما نتأمل آيات «القتال» فى سورة «براءة» ـ التوبة ـ تلك التى يرجف بها المغرضون فيقولون إنها تشرع لنشر الإسلام بالسيف، وإنها لذلك قد خلت من «البسملة» حتى لا تفتتح بذكر «الرحمن الرحيم»؟! ـ حتى آيات القتال فى هذه السورة نراها تأمر المسلمين بقتال من نقض العهد وغدر بالمواثيق، دون الذين استقاموا على عهدهم، رغم أنهم مشركون؟! . . فهى تشرع للفتح، حتى يعود المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم إلى تلك الديار . . وحتى ينال الناكثون للعهود ما يستحقون من تأديب . . وحتى تأمن الدعوة الإسلامية غدر هؤلاء الناكثين . . فما فيها من عنف مشروع لا علاقة له «بالعدوان» ولا بنشر «الدين» عن طريق «القتال» . .

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ

عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة: ١ـ ٧]

. . . . . ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة: ١٢ ـ ١٥].

فرغم أن المناسبة كانت محاطة بنضج الظروف السياسية لفتح المسلمين لمكة، وهو الفتح الذى يمثل «عودة» المهاجرين إلى الوطن الذى «أخرجوا»

منه قسراً وظلماً وعدواناً . . ورغم ما يمثله هذا «الفتح» من شرط ضرورى لتأمين الدعوة الإسلامية وضمان حرية دعاتها فى شبه الجزيرة، بالقضاء على البؤرة المشركة المحركة للقوى المناوئة للدين الجديد . . رغم كل ذلك فلقد ظل الأمر الإلهى بالقتال ـ فى سورة التوبة ـ محكوماً بالنهج الإسلامى الأصيل : أن لا عدوان إلا على المعتدين الظالمين الناكثين للعهود! . . ولم يكن ذلك بالأمر الغريب على أهل دين رسم لهم دينهم ذلك النهج . . فلم يكن القتال الإسلامى غاية للإسلام ولا للمسلمين، وإنما كان سبيلاً لكسر الطوق الظالم عن المستضعفين الذين يئنون تحت وطأة المشركين :

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ[1] الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٧٤ ـ ٧٦].

فهو قتال فى سبيل الله، ولتحرير المستضعفين، يجابه به المسلمون الطاغوت، الذي يعنى الطغيان والعدوان والتطاول ومجاوزة الحدود . . ولم يكن، بحال من الأحوال، وما كان له أن يكون قتالاً لإدخال الناس

(١) المراد مكة، قبل الفتح.

فى دين الإسلام، ولا سبيلاً لقهر القلوب على التدين بالدين الجديد. . ذلك أن العلاقة منبتة والصلة مقطوعة بين «الإيمان» وبين «الإكراه»، ومن ثم فإنها منبتة ومقطوعة بين «القتال» وبين انتشار الإسلام. . فلم تكن لغزوات الرسول ﷺ، ولا لحروب المسلمين وفتوحاتهم تلك الصبغة والفلسفة «الدينية»، التى تجعل نشر العقيدة هدفًا من أهداف الجهاد الإسلامى وغاية من غايات القتال فى سبيل الله.

* * *